الدُّعَاءُ

عناصر الموضوع

مفهوم الدعاء	٣١٦
الدعاء في الاستعمال القرآني	٣١٧
الألفاظ ذات الصلة	٣١٩
الحث على الدعاء وبيان منزلته	٣٢١
آداب الدعاء	٣٢٨
أنواع الدعاء	٣٤٣
آثار الدعاء	٣٦١

مفهوم الدعاء

أولًا: المعنى اللغوي:

الدعاء: مصدر الفعل (دعا) ويقال: دعا الرجل دعوًا ودعاءً: ناداه، والاسم: الدعوة، ودعيت فلانًا صحت به واستدعيته، والدعوة المرة الواحدة، والدعاء واحد الأدعية.

والدعاء أن تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، تقول: دعوت فلانًا أدعوه دعاءً، أي: ناديته، وطلبت إقباله، يقال: دعوت الله أدعوه دعاءً: ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير، ودعا لفلان: طلب الخير له، ودعا على فلان: طلب له الشر[(١)].

والحاصل: أن أصل الدعاء: النداء والطلب مطلقًا، مع ملاحظة استعلاء المنادى المطلوب منه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو: سؤال العبد ربه حاجته.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: حقيقة الدعاء: مناداة الله تعالى لما يريد من جلب منفعة، أو دفع مضرة من المضار[(٢)].

وقال الخطابي في معنى الدعاء: «استدعاء العبد ربه عز وجل العناية، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود، والكرم إليه»[(٣)].

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

المعنى اللغوي والاصطلاحي متوافقان؛ إذ كل منهما يدلان على النداء والطلب، إلا أن المعنى الاصطلاحي خص هذا النداء بأنه نداء من العبد للرب.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٣٣، لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٢٥٧، تاج العروس، الزبيدي، ١/ ١٣٧.

(٢) انظر: مقدمة الترغيب في الدعاء والحث عليه، عبدالغني المقدسي، ص ٥٤.

(٣) شأن الدعاء، ص ٤.

الدعاء في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (د ع و) في القرآن الكريم (٢٠٧) مرات، يخص موضوع البحث منها(٢٠٥) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٠	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت:٣٣]
الفعل المضارع	١٠٦	﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨]
فعل الأمر (دعائي)	٣٢	﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾ [النحل:١٢٥]
اسم فاعل	٧	﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه:١٠٨]
اسم	٢٠	﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤]
مصدر	١٠	﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤]

ورد الدعاء في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: القول: ومنه قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] **يعني: قولهم في الجنة.**

الثاني: العبادة: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١] **يعني: أنعبد من دون الله.**

الثالث: النداء: ومنه قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠] **يعني: فنادى ربه أني مغلوب.**

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٥٧-٢٦٠.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢١٣-٢١٥.

الرابع: الاستعانة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] **يعني: وليستعن بربه.**

الخامس: السؤال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦١] **يعني: سل ربك.**

الألفاظ ذات الصلة

١ الذكر:

الذكر لغة:

الذِّكْر: ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذُّكْر: ما ذكرته بقلبك[١].

الذكر اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «الذِّكْرُ: تارة يقال ويراد به هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلّا أنّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذّكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللّسان. وكلّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ. وكلّ قول يقال له ذكر»[٢].

وقال ابن علان: «أصل وضع الذكر هو ما تعبّدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه»[٣].

الصلة بين الدعاء والذكر:

قال ابن القيم: «إن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاءً لتضمنه الطلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضل الدعاء الحمد لله)، فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجةً ما»[٤].

٢ الاستغاثة:

الاستغاثة لغة:

مصدر استغاث، وهو مأخوذ من الغوث بمعنى: الإغاثة والنّصرة عند الشّدّة[٥].

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٩٤.
(٢) المفردات ص٣٢٨.
(٣) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/ ٣٩٦.
(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٩.
(٥) انظر: لسان العرب ٦/ ٣٣١٢.

الاستغاثة اصطلاحًا:

طلب الغوث في الشدائد والأزمات[١].

الصلة بين الدعاء والاستغاثة:

الدعاء أعم من الاستغاثة؛ إذ الدعاء طلب لدفع الشر وجلب الخير، يعني: فيكون في الشدة وفي الرخاء، أما الاستغاثة فهي طلب لدفع الضر لا لجلب الخير، فلا تكون إلا في الشدة، فكل مستغيث داعٍ وليس العكس.

٣ الاستعاذة:

الاستعاذة لغة:

مصدر استعاذ، وهي من مادة (ع وذ) التي تدلّ على الالتجاء إلى الشيء[٢].

الاستعاذة اصطلاحًا:

هي: اللّجوء والاعتصام، وطلب كف الشرّ[٣].

الصلة بين الدعاء والاستعاذة:

الدعاء طلب دفع ضرر أو جلب نفع، أما الاستعاذة فهي التحصن بالله واللجوء إليه.

٤ الاستعانة:

الاستعانة لغة:

الاستعانة مصدر استعان، وهي: طلب العون، يقال: استعنته واستعنت به فأعانني[٤].

الاستعانة اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فالاستعانة: طلب العون.

الصلة بين الدعاء والاستعانة:

الاستعانة طلب للعون، سواءً بالدعاء أو بغيره، والدعاء قد يكون طلبًا لدفع شر، أو جلب خير.

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص١٥٩.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٦٧، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣١٦٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٩٨.

الحث على الدعاء وبيان منزلته

تعددت وتنوعت أساليب الدعاء في القرآن حثًّا عليه، وبيانًا لمنزلته، وهذا ما نستعرضه في النقاط الآتية:

أولًا: صور الدعاء وتراكيبه:

الناظر في الدعاء القرآني يجده قد جاء على أساليب شتى، تجمع بين الخبر والانشاء؛ مما نستعرضه فيما يأتي:

١. الدعاء بفعل الأمر.

كثر الدعاء بأسلوب الأمر (الطلب) حتى إنه جاء أكثر من مائتين وثلاثين مرة، ولم ترد في الدعاء من صيغ الأمر المعروفة سوى ثلاث صيغ:

صيغة (افعل): وهو أكثر الصيغ ورودًا، كقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٤-٨٦].

وفي دعاء المؤمنين ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقولهم كذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقد ورد في قوله تعالى تعليمًا لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأمته: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

صيغة (فعّل): كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

صيغة (تفعّل): نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

٢. الدعاء بالمصدر النائب عن فعل الأمر.

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٣. الدعاء بأسلوب النهي.

النهي هو «طلب الكف عن الفعل استعلاءً، وله صيغة واحدة وهي لا تفعل، وهو كالأمر في أنه قد يخرج عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية منها (الدعاء) وذلك إذا كان على وجه التذلل والخضوع لله عز وجل»[(١)].

وقد جاء الدعاء بأسلوب النهي نحو خمس عشرة مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(١) مختصر السعد التفتازاني ضمن شروح التلخيص ٢/ ٣٢٤.

وقوله أيضًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وقوله كذلك: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥].

وقد يبنى الدعاء على الأمر وحده؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وقد يبنى على النهي وحده، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد يجمع بين الأمر والنهي في مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وليس لذكرهما معًا قاعدة معينة في الترتيب، فقد يذكر الأمر أولًا، ثم يليه النهي، وذلك كالآية الأولى أو العكس، فيبدأ الدعاء بالنهي، ثم يتبعه الدعاء بالأمر.

وقد يكون الدعاء بهاتين الصيغتين متلوًّا بما يقويه ويؤكده؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ فجملة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ جاءت تذييلًا مؤكدًا لمضمون الجملة قبله، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

وقوله كذلك: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

فجملتا ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ و﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جاءتا تأكيدًا لما قبلها.

٤. الدعاء بأسلوب الاستفهام.

جاء الدعاء بأسلوب الاستفهام في موضعين، والاستفهام في حقيقته يستعمل (لطلب حصول صورة الشيء في الذهن) وقيل: هو «طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل»[(١)].

وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية، تفهم من السياق، من بينها الدعاء[(٢)]؛ ومنه قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

(١) مختصر السعد للقزويني، ومواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص، ابن يعقوب المغربي ٢/ ٢٤٦.

(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، المجمع العلمي العراقي ١/ ١٨١.

أي: لا تهلكنا «فهذا استفهام على سبيل الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف وتذلل»[1]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١] أي: أخرجنا.

٥. الدعاء بأسلوب الخبر.

جاء الدعاء بالأسلوب الخبري في تسع آيات؛ ولهذا الأسلوب مزية ذكرها الزركشي رحمه الله حين أشار أن في«لفظ الخبر الحاصل تحقيقًا لثبوته؛ وأنه مما ينبغي أن يكون واقعًا ولابد، وهذا هو المشهور»[2].

وأشار بعض البلاغيين إلى أن الخبر قد يقع موقع الإنشاء «إما للتفاؤل، أو لإظهار الحرص في وقوعه -والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل الوجهين- أو للاحتراز عن صورة الأمر»[3].

ونجد أنّ الدعاء بأسلوب الخبر قد التزم الجملة الاسمية للتعبير عن حاجات الداعين ومطالبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧].

فقوله عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ يعدّ دعاءً، وإن لم يكن ذلك ظاهرًا «أي: وإن لم يكن بأسلوبي الدعاء المشهورين: الأمر والنهي»، وإنما جاء بالأسلوب الخبري، والذي دلّ أنه دعاء قوله تعالى بعده: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأنبياء: ٨٨].

وكذلك ما جاء في دعاء سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فهو عليه السلام لم يدع الله صراحة، بل عرض حاجته في أدب، وأطلقها على حياءٍ من الله، فعرّض وكنّى عن طلبه -رفع البلاء والضرّ عنه- بالخبر دون الإنشاء، جاءت الآية بعد قوله هذا، فدلّت على أن ما صدر منه هو دعاءٌ وتضرع.

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

ثانيًا: تسمية الدعاء عبادة:

الدعاء هو حقيقة العبادة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٨٩، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٣٤٩.
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، لخطيب القزويني ٣/ ٩٣.

كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

والعبادة طلب الثواب بالأعمال الصالحة، كالنطق بالشهادتين، والعمل بمقتضاهما، والصلاة والصيام والزكاة والحج والذبح لله والنذر له، وبعض هذه العبادات تتضمن الدعاء بلسان المقال مع لسان الحال كالصلاة، فمن فعل هذه العبادات وغيرها من أنواع العبادات الفعلية، فقد دعا ربه، وطلبه بلسان الحال أن يغفر له.

والخلاصة أنه يتعبد لله طلبًا لثوابه وخوفًا من عقابه، وهذا النوع لا يصح لغير الله تعالى، ومن صرف شيئًا منه لغير الله فقد كفر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة، وعليه يقع قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣][1].

جاء الدعاء بمعنى العبادة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

«أي: اعبدوني بدليل ما بعده (عبادتي) وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾ [غافر: ١٤]، أي: (اعبدوا)»[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٧]، أي: عبادتكم[3].

قال تعالى: ﴿ لَّن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ [الكهف: ١٤]، أي: نعبد[4].

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال: (الدّعاء هو العبادة) وقرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠][5].

قوله: (الدّعاء هو العبادة): أتى بضمير

(١) انظر: فتح المجيد، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ص١٨٠.

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية ١/ ٤١٣.

(٣) معجم ألفاظ القرآن ١/ ٤١٤.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٢٤.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، ٢/ ٧٦، رقم ١٤٧٩، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، ٥/ ٦١، رقم ٢٩٦٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، ٢/ ١٢٥٨، رقم ٣٨٢٨.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٤١، رقم ٣٤٠٧.

الفصل والخبر المعرّف باللام ليدل على الحصر في أن العبادة ليست غير الدعاء مبالغةً.

ومعناه أن الدعاء معظم العبادة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة)[1]، أي: معظم أركان الحج الوقوف بعرفة.

أو المعنى: أن الدعاء هو العبادة، سواءً استجيب أو لم يستجب؛ لأنه إظهار العبد العجز والاحتياج من نفسه والاعتراف بأن الله تعالى قادر على إجابته.

ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قيل: استدل بالآية على أن الدعاء عبادة؛ لأنه مأمور به، والمأمور به عبادة.

واستشهد بالآية لدلالتها على أن المقصود يترتب عليه ترتب الجزاء على الشرط، والمسبب على السبب، ويكون أتم العبادات، ويقرب من هذا قوله: (مخ العبادة)، أي: خالصها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين ذليلين.

قال الطيبي: «معنى حديث النعمان أن تحمل العبادة على المعنى اللغوي؛ إذ الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار والاستكانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ حيث عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع عبادتي موضع دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصغار والهوان»[2].

قال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

أي: ادعوا الله وحده، مخلصين له العبادة التي أمركم بها، ولا تلتفتوا إلى كراهة الكفار، ودعوهم يموتوا بغيظهم، ويهلكوا بحسرتهم[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

أي: تعبدونهم أو تدعونهم من دونه عز وجل للاستعانة بهم، لا يستطيعون نصركم في أمر من الأمور[4].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

أي: أعتزل ما تعبدون من دون الله، وأعبد ربي، عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته، كما

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، ٢/ ٢٢٩، رقم ٨٨٩، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، ٢/ ١٠٠٣، رقم ٣٠١٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٠٦، رقم ٣١٧٢.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن ٦/ ١٧٠٨.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٩٠.

(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٤٦.

تشقون أنتم بعبادة الأصنام[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

«أي: لا أحد أضل منه، ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع فكيف يطمع في الإجابة فضلًا عن جلب نفع، أو دفع ضر؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين، وأضل الضالين والاستفهام للتقريع والتوبيخ»[2].

والمتأمل في حقيقة الدعاء يجد فيه تذكيرًا بأصول العقيدة، وتجديدًا للوعي بها؛ قال ابن عقيل: «قد ندب الله تعالى إلى الدعاء، وفي ذلك معان:

أحدها: الوجود، فإن ما ليس بموجود لا يدعى.

الثاني: الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى»[3].

ثالثًا: الوعد باستجابة دعاء الداعين:

من شروط قبول الدعاء الثقة بالله تعالى، واليقين بالإجابة[4]: فهو سبحانه على كل شيء قدير؛ إذ يقول للشيء كن فيكون، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ومما يزيد ثقة المسلم بربه تعالى أن يعلم أن جميع خزائن الخيرات والبركات عند الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

والله عز وجل رغب عباده في الدعاء، ووعدهم لبالغ رأفته ورحمته بهم وكرمه السابغ معهم بالإجابة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومع الثقة في الإجابة يكون الإلحاح على الله عز وجل في الدعاء، فلا استعجال في تحقق المراد، ولا استبطاء لوقوعه؛ مما يبلور توكلًا صادقًا على الله، ويقينًا راسخًا

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٣٥.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٠.
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص٤٥٨.
(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٤٠٧.

بقدرته ورحمته بعباده.

إنّ من علامة التذلّل والافتقار إلى الله عز وجل في الدعاء: الإلحاح فيه والتكرار؛ فعن أبي الدرداء وابن عباس رضي الله عنهما أنّهما كانا يقولان: اسم الله الأكبر: ربّ، وعن عطاء قال: ما قال عبد: يا ربّ ثلاث مرات إلا نظر الله إليه، فذكر ذلك للحسن فقال: أما تقرؤون القرآن؟!

ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران ١٩١-١٩٥][1].

ونجد هذا الإلحاح والتكرار في دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

(١) المصدر السابق ١/ ٩٢.

آداب الدعاء

للدعاء آداب سوف نعرضها في النقاط الآتية:

أولًا: الدعاء بأسماء الله الحسنى:

من أعظم الثناء على الله عز وجل الدعاء بالأسماء الحسنى، والتوسل بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠-١٨١].

ومن دواعي الإجابة تحري الأدعية التي اشتملت على اسم الله الأعظم؛ فعن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢])[1].

ويستحضر الداعون حين يرفعون أكفهم بالدعاء عبوديتهم الخاضعة لله وحده، وتتجدد في وعيهم أبعاد وحدانية خالقهم المعطي سبحانه الذي يتوجهون إليه، وهم ينشدون تحقيق ما يرغبونه من جلب نفع، أو كشف ضر، أو طلب حاجة.

وقد أفاضت آيات من القرآن في بيان ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ۚ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١١-

(١) أخرجه أبو داود في سننه، تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، ٢/ ٨٠، رقم ١٤٩٦، والترمذي في أبواب الدعوات، ٥/ ٣٩٤، رقم ٣٤٧٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، ٢/ ١٢٦٧، رقم ٣٨٥٥.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٢٩، رقم ٩٨٠.

١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

وقال عز وجل: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ۖ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦].

وكل من استغاث بغير الله، أو دعا غير الله دعاء عبادة أو دعاء مسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك مرتد، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم

﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

على من يتوجّه إلى ربه عز وجل بعد شعوره بضعفه، وحاجته الماسة إلى ملك الملوك، ومن بيديه خزائن السموات والأرض أن يحمد ربه ويثني عليه، ويمجّده بما هو أهله، ويجعل ذلك وسيلته إلى رضا ربّه وقبول دعائه، يظهر ذلك في أدعية القرآن الكريم؛ فسورة الفاتحة التي هي أم الكتاب، والجامعة لمقاصده بدأت بحمد الله، وأثنت عليه ومجّدته سبحانه وتعالى، ثم ذكرت الاعتراف بعبوديّته، والاستعانة به وحده، وشرعت بعد ذلك في أعظم دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

«ولمّا كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب، ونيله أشرف المواهب، علّم الله عباده كيفيّة سؤاله، وأمرهم أن يقدّموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديّتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسّل إليهم بأسمائه وصفاته، وتوسّل إليه بعبوديّته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يردّ معهما الدعاء»[1].

ومن أدعية القرآن المبدوءة بتمجيد الله تعالى:

- دعاء يونس عليه السلام: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].
- دعاء يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].
- ودعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

ثانيًا: الإخلاص في الدعاء:

الإخلاص: هو تصفية الدعاء من كل ما يشوبه، وصرف ذلك كله لله وحده، لا شرك فيه، وإنما يرجو العبد ثواب الله وينشد تحقيق آماله من الله وحده مخلصًا له سبحانه في عبوديته له.

وقد أمر الله تعالى بالإخلاص في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٣.

﴿نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ويرتبط التوحيد بالإخلاص في الدعاء، قال عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

والعمل الصالح هو ما كان موافقًا لشرع الله تعالى، ويراد به وجه الله سبحانه، فلابد أن يكون الدعاء والعمل خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)].

ولهذا قال الفضيل بن عياض في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

قال: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»[(٢)]، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

فإسلام الوجه: إخلاص القصد والدعاء والعمل لله وحده، والإحسان فيه: متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته[(٣)]، فيجب على المسلم أن يكون متبعًا للنبي صلى الله عليه وسلم في كل أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٠٩.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٨٩.

(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ٩٠.

تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤].

وقد يتوسل العبد إلى الله تعالى بأنواع التوسل المشروعة؛ قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ أي: تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه[1].

وأنواع التوسل المشروع ثلاثة:

١. **التوسل في الدعاء باسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته، كأن** يقول الداعي في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير أن تعافيني، أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ومن دعاء سليمان عليه السلام ما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

٢. **التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي نفسه، ويدل على مشروعية** ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران ٥٣].

٣. **التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الحي الحاضر، وهو أن يطلب** المسلم المفرّط والمقصر في دين الله من رجل صالح تقي أن يدعو له ربه فيفرج عنه كربه.

ثالثًا: الدعاء رغبًا ورهبًا:

مدح الله تعالى عبده زكريا عليه السلام وأهله بتذلّلهم عند دعائهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ذكر الحافظ ابن كثير بسنده عن عبدالله ابن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال: أمّا بعد، فإنّي أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٣.

بالمسألة، فإنّ الله أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠][1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ذكر الإمام القرطبي: «قيل: الرغب: رفع بطون الأكف إلى السماء، والرهب: رفع ظهورها»[2].

ومتى كان الدعاء رغبًا ورهبًا فلا يقع من العبد شيء من الاستعجال أو ترك الدعاء: فالعبد لا يستعجل في عدم إجابة الدعاء؛ لأن الله قد يؤخر الإجابة لأسباب: إما لعدم القيام بالشروط، أو الوقوع في الموانع، أو لأسباب أخرى تكون في صالح العبد وهو لا يدري، فعلى العبد إذا لم يستجب دعاؤه أن يراجع نفسه، ويتوب إلى الله تعالى من جميع المعاصي، ويبشر بالخير العاجل والآجل، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

الخشوع واستحضار القلب عند الدعاء:

يشترط في الدعاء الضراعة وحضور القلب، وإظهار الخشوع لله عز وجل، ويرتبط الخشوع وحضور القلب بالإقبال على الدعاء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

والمراد بالخشوع والخضوع وحضور القلب أن يقصد بدعائه الخضوع والتذلّل لعظمة ربّه، كما هو وصف العبد اللازم له، ولا يكون الدعاء بلسانه والغفلة بجنانه، فيكون مانعًا له من مراده.

إنّ الخشوع والخضوع أرجى لقبول الدعاء؛ لأنّ فيه تعظيم الله تعالى، واستحضار الضعف مع التأدّب عند مناجاة الربّ.

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥- ٥٦].

وهذا أمر بالدعاء وتعبّد به، ثم قرن جلّ وعزّ بالأمر صفات تحسن معه، وهي: الخشوع والاستكانة والتضرّع، أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقّب وتخوّف وتأمّل لله عز وجل حتّى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك

(١) المصدر السابق ٣/ ١٨٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٣٦.

الإنسان، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

فرجّى وخوّف، فيدعوه الإنسان خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠][1].

وقد ذمّ الله الذين لا يتضرعون إليه، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:٧٦].

وقال الله عز وجل: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

مع هذا كلّه يجب أن يكون الداعي حاضر القلب، روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيّها النّاس فاسألوه، وأنتم موقنون بالإجابة، فإنّ الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل)**[2].

وقد أمر الله تعالى بحضور القلب، والخشوع في الذكر والدعاء، فقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يتضرّع عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: **لمّا كان يوم بدرٍ نظر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابه ثلاث مائةٍ وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبيّ اللّه صلى الله عليه وسلم القبلة، ثمّ مدّ يديه، فجعل يهتف بربّه: (اللّهمّ أنجز لي ما وعدتني، اللّهمّ آت ما وعدتني، اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربّه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكرٍ فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثمّ التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ اللّه كفاك مناشدتك ربّك، فإنّه سينجز لك ما وعدك، فأنزل اللّه عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾** [الأنفال: ٩]. **فأمدّه اللّه بالملائكة**[3].

(١) انظر: المصدر السابق ٧/ ٢٢٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٣٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلّف عنه أثره، إمّا لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله؛ لما فيه من العدوان، وإمّا لضعف القلب، وعدم إقباله على الله، وجمعيته عليه وقت الدعاء، وإمّا لحصول المانع من الإجابة، من أكل الحرام، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها»[1].

فلابد للمسلم في دعائه من أن يحضر قلبه مع الله عز وجل، ونعني به أن يفرّغ الدّاعي قلبه عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونًا بهما، ولا يكون الفكر جائلًا في غيرهما، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه، ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء، فقد حصل حضور القلب، وهذا أعظم شروط قبول الدعاء[2].

رابعًا: تحري أوقات ومواطن الإجابة:

من الأسباب الداعية الى استحضار القلب تحري الأحوال المختصة بالإجابة؛ فإجابة الدعاء علم قد اختص الله تعالى به، لا شأن للعبد فيه، فمن تأمل نصوص الكتاب الكريم يلاحظ أنّ الأوقات ليست كلّها سواء، فمنها ما تفتح فيها أبواب السماء، ولا يحجب فيها الدعاء، ومنها ما تستنزل فيها الرحمة أكثر من غيرها، وفيما يلي ذكر لبعض هذه الأوقات والأحوال، والأماكن التي ترجى فيها الإجابة:

❁ **جوف الليل ووقت السّحر.**

وقد مدح الله المستغفرين بالأسحار، فقال عز وجل: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: هم المؤمنون، وبلغنا أن نبي الله يعقوب حين سألوه أن يستغفر لهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٧-٩٨].

قال بعض أهل العلم: إنه أخّر الاستغفار إلى السحر، وهي الساعة التي تفتح فيها أبواب السماء، قال ابن زيد: السحر هو السدس الأخير من الليل[3].

❁ **يوم الجمعة.**

وقت اجتماع الهمم، وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ

الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٣/ ١٣٨٣-١٧٦٣.

(١) انظر: الجواب الكافي، ص٨-٩.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ١٦١، جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٤٠٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٥٥.

﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩-١٠].

❁ **رمضان.**

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥-١٨٦].

فقد ذكر سبحانه إجابة الدعاء عقب ذكره فريضة الصيام، وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم)[(١)].

❁ **ليلة القدر.**

وهي أكثر الليالي أهمية في استجابة الدعاء، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[(٢)]، فعلى المؤمن أن يتحرى هذه الليلة، ويحييها بالصلاة والدعاء.

❁ **حال السجود.**

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)[(٣)].

❁ **الحرم المكي.**

ويظهر ذلك فيما ورد عن بعض الصحابة

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في العفو والعافية، ٥/ ٤٧٠، رقم ٣٥٩٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته، ١/ ٥٥٧، رقم ١٧٥٢.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن».
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٣٨٣، رقم ٢٥٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٤١٦، رقم ٣٥١٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، ٢/ ١٢٦٥، رقم ٣٨٥٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ١/ ٦٤٦، رقم ٢٠٩١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٠- ٤٨٢.

رضوان الله عليهم؛ فعن حبيب بن صهبان قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف بالبيت وهو يقول بين الباب والركن أو بين المقام والباب: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١][1].

❁ **المساجد.**

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وأما قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: وجّهوا وجوهكم حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال آخرون: بل عنى بذلك: واجعلوا سجودكم لله خالصًا، دون ما سواه من الآلهة والأنداد، قال أبو جعفر: وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية أن القوم أمروا أن يتوجهوا بصلاتهم إلى ربهم لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصًا، لا مكاءًا ولا تصدية[2].

وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

وفي هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعية طيبة مرتبطة بالمسجد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهمّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهمّ إني أسألك من فضلك)**[3].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال: **(بسم الله والسّلام على رسول الله، اللّهمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج قال: بسم الله، والسّلام على رسول الله، اللّهمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك)**[4].

خامسًا: الدعاء وقت الشدة والضرورة:

لابدّ للداعي أن يتوجه إلى الله تعالى توجّه المضطر الذي لا يرجو غيره، وأن

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب دخول مكة، باب القول في الطواف، ٥/ ١٣٧، رقم ٩٢٩١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٨٠-٣٨١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما يقول إذا دخل المسجد، ١/ ٤٩٤، رقم٧١٣.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٤/ ١٥، رقم ٢٦٤١٧، وابن ماجه في سننه، كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، ١/ ٢٥٣، رقم ٧٧١ .
وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ١/ ٢٣٧، رقم ٦٣٢.

يرجع في كلّ حوائجه إلى ربه، ولا ينزلها بغيره من الأسباب التي لا تملك ضرًا ولا نفعًا، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٥٦].

فإذا لجأ الداعي إلى ربه بقلب سليم، وكان دعاؤه حقيقيًا صادقًا جادًا، تحقق الانقطاع الصادق بالاضطرار الحقيقي إلى الله تعالى الذي هو شرط في قبول الدعاء، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وهكذا قال ها هنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه[1].

المضطر المكروب هو ذو الضرورة المجهود الذي أحوجه مرض أو شدة، أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى واللجإ إليه تعالى من الاضطرار، وقال السدي: «الذي لا حول له ولا قوّة، وقيل: المذنب إذا استغفر، وهو إفتعال من الضرورة، واللام فيه للجنس، لا للاستغراق، فلا يلزم منه إجابة كل مضطر، ويكشف السّوء الضر، ويدفع عن الإنسان ما يسوءه»[2].

وقد ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ فأما قوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما دفع إليه من فقر إلى غنى، ومرض إلى صحة، وضيق إلى سعة إلا القادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا ينازع[3].

والسبب في ذلك أنّ الضرورة إليه بالالتجاء تنشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عمّا سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٦٥، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٥.

[يونس: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

أجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنّهم يعودون إلى شركهم وكفرهم، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه(١).

فمن اعتقد أن لله شريكًا لم يحصل له الاضطرار؛ لأنه يقول: إن كان هذا المعبود لا ينصرني فذاك الآخر ينصرني، وإن لم يحصل في قلبه الاضطرار لم تحصل الإجابة ولا النصرة(٢).

والحق أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم، في أمور دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

«يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الناس أنتم أولو الحاجة والفقر إلى ربكم فإياه فاعبدوا، وفي رضاه فسارعوا، يغنكم من فقركم، وتنجح لديه حوائجكم ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عبادتكم إياه وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء؛ منكم ومن غيركم، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ يعني: المحمود على نعمه؛ فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه، فله الحمد والشكر بكل حال»(٣).

قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه، ولا اتكال إلا عليه، وهذا يوجب عبادته؛ لكونه مفتقرًا إليه، وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره(٤).

وهذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئًا من ذلك كله، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق، فإنه يحرمها في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته خطاياه في الآخرة(٥).

والعبد يسأل ربه كل شيء يحتاجه في أمر دينه ودنياه؛ لأن الخزائن كلها بيده سبحانه وتعالى، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

أي: وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلًا لاقتداره أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة، التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد، وما ننزّله من بقاع القدرة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٣٠.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٧.

إلّا بقدرٍ معلومٍ حده الحكمة وتعلقت به المشيئة، فإن تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتملًا على بعض الصفات والحالات لابد له من مخصص حكيم[1].

سادسًا: خفض الصوت في الدعاء:

من آداب الدعاء خفض الصوت، وجعله بين المخافتة والجهر؛ لقوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانوا يجهرون بالدعاء، فلما نزلت هذه الآية أمروا أن لا يجهروا ولا يخافتوا، وتأويل الكلام -كما ذكر الطبري-: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه، وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت بها، فلا يسمعها أصحابك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[2].

و«المراد بالصلاة: الدعاء، وهذا قول عائشة رضي الله عنها، وأبي هريرة، ومجاهد، وروي هذا مرفوعًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية: إنما ذلك في الدعاء والمسألة، لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك، فتعيّر بها، فالجهر بالدعاء منهي عنه، والمبالغة في الإسرار غير جائزة، والمستحب من ذلك التوسّط وهو أن يسمع نفسه»، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لم يخافت من أسمع أذنيه».

وروي عن الإمام مالك أنه قال: «إنما أنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ في الدعاء»[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، المراد منه: أن يقع ذلك الذكر بحيث يكون متوسطًا بين الجهر والمخافتة، كما قال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وتفسير قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، المعنى: أن يذكر ربه على وجه يسمع نفسه، فإن المراد حصول الذكر اللساني، والذكر اللساني إذا كان بحيث يسمع نفسه فإنه يتأثر الخيال من ذلك الذكر، وتأثر الخيال يوجب قوة في الذكر القلبي الروحاني، ولا يزال يتقوى

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٠٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٨١- ٥٨٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٧٢.

كل واحد من هذه الأركان الثلاثة، وتنعكس أنوار هذه الأذكار من بعضها إلى بعض، وتصير هذه الانعكاسات سببًا لمزيد القوة والجلاء والانكشاف والترقي من حضيض ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار مدبر النور والظلام[1].

كما أنّ الدعاء مع هذه الهيئة يكون كما قال الله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ لأنّ ذلك يكون أبعد من الرياء؛ ذلك أنّ الشريعة مقرّرة أنّ السر فيما يعترض من أعمال البر أعظم أجرًا من الجهر، قال الحسن بن أبي الحسن: لقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرًا فيكون جهرًا أبدًا[2].

ويبيّن العلامة ابن القيم فوائد لإخفاء الدعاء، فيقول:

أولها: أنّه أعظم إيمانًا؛ لأنّ صاحبه يعلم أنّ الله يسمع دعاءه الخفي.

ثانيها: أنّه أعظم في الأدب والتعظيم؛ ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الصوت، وإنّما تخفض عندهم الأصوات، ويخفت عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذًا ربنا يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بين يديه إلا خفض الصوت.

ثالثها: أنه -يعني الإخفاء- أبلغ في التضرّع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإنّ الخاشع الذليل الخاضع إنّما يسأل مسألة ذليل قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب على الله في الدعاء، فإنّ رفع الصوت يفرّقه ويشتّته، فكلّما خفض صوته كان أبلغ في حمده، وتجريد همته، وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

سادسها: أنه دالٌّ على قرب صاحبه من الله، وأنّه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنّه يكلّ لسانه وتضعف بعض قواه[3].

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قومًا يرفعون أصواتهم بالدعاء أنكر عليهم قائلًا: **(أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا)**[4].

(١) المصدر السابق ١٥/ ٤٤٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣-٢٢٤.
(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص٨٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٣٣، رقم ٤٢٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر

سابعًا: عدم الاعتداء في الدعاء:

ومن آداب الدعاء عدم الاعتداء فيه؛ فالاعتداء فيه من أسباب موانع إجابته، قال سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقد فسّر الاعتداء -في معنى الآية- بتكلف السجع في عبارات الدعاء، أو التفصيل فيه بتكلف[(١)].

وكذلك فسّر برفع الصوت به؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما لعكرمة رحمه الله: «فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك»[(٢)]. يعني: لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب.

والتعجل من صور الاعتداء في الدعاء، والإنسان خلقه الله تعالى وأوجد فيه غرائز وفطر فيكون أحيانًا في غاية السرور والفرح من نفسه أو من أحد أقاربه وأصدقائه، وقد يتغيّر الحال تمامًا فيصير القريب عدوًا، والعدو صديقًا، بل قد يدعو الإنسان أحيانًا على نفسه وولده، ثم يندم بعد قليل، فلو استجيبت الدعوة لدام حزن هذا الإنسان إلى الأبد، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

قال أبو جعفر: «يقول -تعالى ذكره-: ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر، وذلك فيما عليهم مضرة في نفس أو مال ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾، يقول: كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، يقول: لهلكوا، وعجّل لهم الموت، وهو الأجل»[(٣)].

والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ٤/ ٢٠٧٦، رقم ٢٧٠٤.

(١) الأذكار، النووي ص٤٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يكره من السجع في الدعاء، ٨/ ٧٤، رقم٦٣٣٧.

(٣) جامع البيان ١٥/ ٣٣.

أنواع الدعاء

ينقسم الدعاء في القرآن إلى دعاء ممدوح ودعاء مذموم، وسوف نعرضها في النقاط الآتية:

أولًا: الدعاء الممدوح:

إن أعظم الأدعية الممدوحة هي تلك التي أثرت عن الأنبياء عليه السلام.

وقدسجّلت آيات القرآن الكريم كثرة من أدعية الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، والنظر فيها يعلّم المسلم كثيرًا من آداب الدعاء، ويهبه كثيرًا من أوجه الخير؛ إذ يعرف كيف يدعو، وبم يدعو، ويتجدد وعيه بسير الأنبياء والمرسلين ممن يؤمن المسلم بهم، وهم لديه في مقام القدوة والاحتذاء.

وقد اهتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من عباد الله الصالحين بالدعاء، فاستجاب الله دعاءهم، وهذا كثير في القرآن ومن أمثلته:

❁ آدم عليه السلام.

ذكر القرآن الكريم ما كان من وسوسة الشيطان لآدم عليه السلام: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

وما ترتب على ذلك من ندمه عليه السلام وزوجه؛ آنئذٍ اتجها إلى الله في ذل وانكسار واعتراف بالذنب؛ مما يسجّله قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وذلك عندما «قال آدم: أي ربّ أرأيت إن تبت واستغفرت؟! قال: إذًا أدخلك الجنة، فقالا قولهما السابق، وهي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه»[(١)].

وكانت الاستجابة للدعاء والاستغفار؛ فغفر الله لهما، كما قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ثم أكرمه الله بالاصطفاء، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وخصّه بالاجتباء، فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

❁ نوح عليه السلام.

فقد سجّل القرآن ما كان من حرص نوح عليه السلام على دعوة قومه ليلًا ونهارًا، لكن ذلك كله لم يغيّر من إعراضهم وصدهم شيئًا، بل استمروا في كفرهم حينها انقطعت الحجة، واستحقوا العذاب، فدعا عليهم عليه السلام بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٠٦.

﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٨].

وسبب الدعاء عليهم هو إضلالهم لعباد الله سبحانه وتعالى، وأنه لن يخرج من أصلابهم إلا الكفار، ولا شك أن هذا من علم الغيب، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع عليه نوحًا بما أوحى إليه، قال الطبري: «قال قتادة: أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]. فعند ذلك دعا عليهم نبي الله نوح»[(١)].

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي: «لما استنفذ الله سبحانه وتعالى من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين، أوحى الله إليه»[(٢)].

وقال السعدي: «وإنما قال نوح ذلك لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم علم بذلك نتيجة أعمالهم؛ فلهذا استجاب الله دعوته، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين»[(٣)].

وقد استجاب الله عز وجل دعاء نوح عليه السلام على قومه فأغرقهم بالطوفان، وأنجاه ومن آمنوا معه؛ قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٩-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦].

وقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

❁ **إبراهيم عليه السلام.**

وكان خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام معروفًا بالدعاء والمناجاة؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

إنه كان يكثر من الدعاء[(٤)].

قال الله تعالى عن دعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝٨٤ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٥].

فاستجاب الله له؛ قال تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ؟ ٥٤].

(١) جامع البيان ٢٩/ ١٠١.
(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٢٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٤٩.

وقال في قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وكانت الاستجابة لدعائه عليه السلام الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ مذكورةً في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٨-٨٠].

وقد أشرك ولده إسماعيل في الدعاء كما أشركه في البناء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

وقوله تعالى كذلك: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقوله أيضًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٥].

ويدل دعاؤه لأبيه رغم كفره وإعراضه على شفقته وعطفه، قال تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وذلك لأنه قد وعده بالاستغفار له، كما جاء في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

❁ **هود عليه السلام.**

وقد تضرع هود عليه السلام لربه حين كذّبه قومه، وخالفوه وتنقصوه قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩].

❁ **لوط عليه السلام.**

أما لوط عليه السلام فأخذ يدعو قومه، ولكنهم لم يجيبوا داعي الله، وهمّوا بإخراجه قال تعالى على لسانهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

«فلما طال تماديهم في غيّهم ولم ينزجروا دعا عليهم لوطٌ، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]»[(١)].

❁ **يعقوب عليه السلام.**

وقد اشتد البلاء بيعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وقال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقد ناجى يعقوب عليه السلام ربه شاكيًا إليه بثه وحزنه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٦/ ٥٦.

أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٣-٨٧].

ثم استجاب الله دعاءه، ورد عليه يوسف وأخاه، قال الله: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٠-٩٦].

❁ **يوسف عليه السلام.**

ودعا يوسف عليه السلام ربه حين استشعر وطأة البلاء: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٢-٣٤].

ويطلعنا دعاء المرسلين على ما كان من جهدهم المبذول في تبليغ الرسالة لأقوامهم، والاجتهاد في هدايتهم؛ فكان في تدبر الآيات التي تعلقت بدعائهم عليهم السلام ما يذكّر بسيرتهم، ويخوّف من مغبة الإعراض عن الصراط المستقيم.

❁ **موسى عليه السلام.**

وقد دعا موسى عليه السلام ربه طالبًا عونه للقيام بمهمة التبليغ على أكمل وجه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥-٣٢].

وقد استجاب الله له ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

وبعد أن وجد من الإعراض والعناد ما وجد دعا على فرعون وقومه، قال الله تعالى

عن موسى وهارون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

هذا دعاء عليهم بهلاك الأموال، أو جعلها غير منتفع بها؛ لأنهم جعلوا تلك الأموال في سبيل الإضلال، فيضلّون ويضلّون، وكذلك دعا عليهم بقساوة القلوب جزاء جحدها للحق، وإعراضها عن الدعوة[1].

وقد استجاب الله لهما ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

❁ **يونس عليه السلام.**

وهناك دعوة يونس عليه السلام التي ورد ذكرها في القرآن مقرونًا بذكر الاستجابة لها.

قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

إذ ذهب مغاضبًا لقومه لما تبرم بطول دعوتهم، وشدة شكيمتهم، وتمادي إصرارهم مهاجرًا عنهم، قبل أن يؤمر، وقيل: وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال، فظن أنه كذبهم وغضب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة؛ «أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها»[2].

عن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)**[3].

❁ **سليمان عليه السلام.**

وسليمان عليه السلام آتاه الله الملك، وسخّر له الريح، وعلّمه منطق الطير، وجعل جنوده من الثقلين، فدعا الله بأن لا يكون هذا الملك لأحد من بعده، فقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يسلبنيه، وقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى: لا ينبغي لأحد سواي من أهل زماني، فيكون حجةً وعلمًا لي على نبوتي، وأني رسولك

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤١.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٤٠٩، رقم ٣٥٠٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٣٧، رقم ٣٣٨٣.

إليهم مبعوث[1].

❁ أيوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده؛ وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثير، ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك[2].

وصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها، واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفًا في السؤال[3].

وقد استجاب الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

❁ زكريا عليه السلام.

ودعا زكريا عليه السلام ربّه طالبًا الذّرّيّة، قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨-٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

ومع علمه أنه شيخٌ كبير، وأنّ زوجه عاقرٌ لا تلد، إلاّ أنه أخذ يناجي ربه ويدعوه خفيةً.

قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢-٦].

فاستجاب الله له ورزقه بيحيى سيدًا وحصورًا ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

❁ عيسى عليه السلام.

وقد دعا عيسى عليه السلام ربّه أن ينزل المائدة على قومه كما طلبوا منه؛ لتكون دليلًا على نبوته، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٠٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٥٩.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٨.

﴿وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

❁ محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه يفزعون إلى الدعاء؛ وفي هذا تعليم للأمة، وتربية في حسن التوجه إلى الله، وصدق التوكل عليه، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وفي بدر حيث التقى الجمعان، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه، واستنصره متضرعًا إليه حتى سقط رداؤه، فأنجز له الله تعالى ما وعده، وأمدّه بألف من الملائكة مردفين، ولاحت بشائر الانتصار[1].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: **لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربه، مادًا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل:** ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠]. **فأمده الله بالملائكة**[2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

وبهذا كان المؤمنون من الصحب الكريم تمثيلًا لمرحلة من نصرة دين الله في تاريخ البشرية تذكّر بما كان من جنود طالوت الذين ثبتهم الله وقاتلوا جالوت؛ ولما اشتدّ

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

الفزع بأصحاب طالوت لكثرة العدد والعدة في صفّ جالوت وجنوده، طلبوا من الله النصر في ضراعة؛ فدعوا الله متضرعين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

وفي كل المراحل التي نهض المؤمنون فيها بجهادهم لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله كان التعويل على الدعاء يستمد به العون من ناحية، ويتوقى به اليأس من انقطاع الاسباب أو الاغترار بها من ناحية أخرى.

ويتأسى المسلمون بما تضمنته آي القرآن من أدعية الصالحين من عباد الله المؤمنين؛ إذ يلازم الدعاء إخلاص عبوديتهم لله وتمسكهم بدينه، وجهادهم في سبيله، ويتأسس دعاؤهم على عبوديتهم الخاشعة لله التي تملأ قلوبهم يقينًا بالاستعانة به وحده؛ فلا مدعو غيره، ولا مسئول سواه، ومع استحضار هذه المعاني في القلوب يكون (الصّراط المستقيم) هدفًا وغاية. ومن رحمة الله بعباده أن كان الوقوف بين يدي الله في كل صلاة وسيلة لتجديد الوعي بهذه الأبعاد؛ إذ يضرع المسلمون بهذا الدعاء في كل صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥-٦].

ويدعو المسلم ربه كل يوم في فاتحة الكتاب -التي لا صلاة إلا بها- بهذا الدعاء ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

إن الهدف المبتغى الذي يضرع المسلم بهذا الدعاء العظيم لأجله هو الهداية للصراط المستقيم؛ وهو صراط وسط بين سبيل من حل عليه الغضب، ومن زل في الضلالة.

﴿ٱهْدِنَا﴾ دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب، والمعنى: دلنا على الصراط المستقيم، وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك، قال بعض العلماء: فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته موضوعًا في هذه السورة...، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به الداعي؛ لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به، وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: (ليس شيءٌ أكرم على

الله من الدعاء)[1][2].

والصراط الذي يسأل المؤمنون ربهم أن يهديهم إليه صراط من ظفر بالنعمة غير ضال ولا مغضوب عليه؛ والمفسرون يوجهون الدلالة إلى اليهود أهل الغلو في الدين، والنصارى أهل الغلو في الرهبانية، وكلا الطائفتين زلت في اعتقاد معوج متخبط.

«وقد اختلف في «المغضوب عليهم» و«الضالين» من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى»[3].

وبتأمل أحوال الأمم السالفة يكون استخلاص العبرة على نحو يتجلى في دعاء المؤمنين وتضرعهم إلى خالقهم؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال أبو جعفر: «ويعني بذلك جل ثناؤه: قولوا: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ يعني بـ﴿إِصْرًا﴾ العهد، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١].

وإنما عنى بقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾، ولا تحمل علينا عهدًا فنعجز عن القيام به ولا نستطيعه ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ يعني: على اليهود والنصارى الذين كلفوا أعمالًا، وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيام بها، فلم يقوموا بها، فعوجلوا بالعقوبة، فعلّم الله عز وجل أمة محمد صلى الله عليه وسلم الرغبة إليه بمسألته أن لا يحملهم من عهوده ومواثيقه على أعمال إن ضيعوها أو أخطأوا فيها أو نسوها، مثل الذي حمل من قبلهم، فيحل بهم بخطئهم فيه وتضييعهم إياه مثل الذي أحل بمن قبلهم»[4].

ويرتبط الإيمان بالتوجه الى الله بالدعاء صدورًا عن العبودية الخاشعة؛ كما نجد في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، رقم ٨٧٤٨.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٢٢٣٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٤٧.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٤٩.

(٤) جامع البيان ٦/ ١٣٥.

[آل عمران: ١٦].

ويستشعر المؤمنون أن هذه الهدايه نعمة جليلة، وهبة عظيمة يسألون الله أن يحفظها لهم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ويظهر إدراك المؤمنين لعظم نعمة الإيمان في كثير من أدعية القرآن؛ ولاسيما حين تشتد المواجهة بين المؤمنين والكافرين؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وقد تضرع الذين آمنوا مع شعيب عليه السلام إلى الله عز وجل قائلين: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

واستمد السحرة المؤمنون بموسى الصبر من ربهم، مستمسكين بدينهم حتى انقضاء أجلهم؛ ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وتضرع الذين آمنوا معه ألا يكونوا فتنة للقوم الظالمين؛ على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

وأيضًا استمد أصحاب الكهف من ربهم الرحمة والرشد؛ حين خافوا الافتتان في دينهم، فهربوا إلى الكهف، ودعوا الله ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

والحواريون وهم أنصار عيسى عليه السلام وتلاميذه دعوا الله قائلين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

قال أبو جعفر: «وهذا خبر من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾، أي: صدّقنا ﴿بِمَا أَنزَلْتَ﴾، يعني: بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك، ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ يعني بذلك: صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به، وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك، وقوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، يقول: فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقروا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحلنا محلهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصد عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك»[1].

والحال كذلك مع رهبان النصارى وهم

(١) المصدر السابق ٦/ ٤٥٢.

الذين فاضت أعينهم بالدمع عند سماعهم القرآن لمعرفتهم بأنه الحق من ربهم ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

«هذه صفة قوم كانوا على شريعة عيسى من أهل الإيمان، فلما بعث الله -تعالى ذكره- نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم آمنوا به»[١].

ولهذا فقد كان من الدعاء المحمود الدعاء للمسلمين بالثبات على الدين؛ ويستفاد ذلك من دعاء إبراهيم عليه السلام لذريته بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

قال ابن كثير في تفسير قوله: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ «أي: ليكون ذلك عونًا لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع، فاجعل لهم ثمارًا يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[القصص: ٥٧].

وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابةً لدعاء الخليل عليه السلام»[٢].

ومن الله وحده يطلب المؤمنون خير الدنيا وخير الآخرة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال أبو جعفر: «يعني بذلك جل ثناؤه: فإذا قضيتم مناسككم أيها المؤمنون فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا، وارغبوا إليه فيما لديه من خير الدنيا والآخرة بابتهال وتمسكن، واجعلوا أعمالكم لوجهه خالصًا، ولطلب مرضاته، وقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، ولا تكونوا كمن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فكانت أعمالهم للدنيا وزينتها، فلا يسألون ربهم إلا متاعها، ولا حظ لهم في ثواب الله، ولا نصيب لهم في جناته، وكريم ما أعد لأوليائه»[٣].

جاء في تفسير الرازي الإنسان خلق محتاجًا ضعيفًا، لا طاقة له بآلام الدنيا ولا بمشاق الآخرة، فالأولى له أن يستعيذ بربه من كل شرور الدنيا والآخرة[٤].

وقد اختلف أهل التأويل في معنى ﴿حَسَنَةً﴾ التي ذكر الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: يعني بذلك: ومن الناس من

(١) المصدر السابق ١٠/ ٥٠١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٤٢.

(٣) جامع البيان ٤/ ٢٠١.

(٤) مفاتيح الغيب ٥/ ٣٣٦.

يقول: ربنا أعطنا عافية في الدنيا وعافية في الآخرة، وقال آخرون: بل عنى الله عز وجل بالـ﴿حَسَنَةً﴾ في هذا الموضع في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة، وقال آخرون: ﴿حَسَنَةً﴾ في الدنيا: المال، وفي الآخرة: الجنة، وقيل: في الدنيا حسنة امرأة صالحة، وفي الآخرة حسنة الجنة والحور العين، وقيل: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقًا حلالًا، وعملًا صالحًا، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ المغفرة والثواب.

قال أبو جعفر: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن قوم من أهل الإيمان به وبرسوله، ممن حج بيته، يسألون ربهم الحسنة في الدنيا، والحسنة في الآخرة، وأن يقيهم عذاب النار وقد تجمع الحسنة من الله عز وجل العافية في الجسم والمعاش والرزق والعلم والعبادة، وغير ذلك، وأما في الآخرة فلا شك أنها الجنة؛ لأن من لم ينلها يومئذٍ فقد حرم جميع الحسنات، وفارق جميع معاني العافية»[1].

ومن خير الدنيا ما ينعم الله به على عباده من عطايا ونعم، وما يهبهم من ذرية مما يتجلى في هذا الدعاء الذي ورد في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقد دعت امرأة عمران -أم مريم البتول- ربها قائلةً أن يقي ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

أما في الآخرة فيشفق عباد الرحمن من النار، سائلين الله عز وجل أن يقيهم إياها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

ويسألونه الجنة ونعيمها، كما ورد في دعاء امرأة فرعون التي دعت ربها وتضرعت إليه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

ويستقي المؤمنون مما ورد في أدعية الأنبياء والمرسلين كثيرًا من آداب الدعاء وشروطه؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم غالبًا ما يصدّر دعاءه بالفعل (قل) لأنه تعليمٌ من الله عز وجل لرسوله كيفية الدعاء، والأمر للرسول أمرٌ لأمته أيضًا، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) انظر: جامع البيان ٤/ ٢٠٣-٢٠٥.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يدعو: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧].

وهمزات الشياطين: خطراتها التي تخطرها بقلب الإنسان(١).

وأمره كذلك بقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨].

فقد أمر رسوله «بأن يعوذ به تعالى من حضورهم بعدما أمر بالعوذ من همزاتهم؛ للمبالغة في التحذير من ملابستهم، وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به، وتخصيص حال الصلاة، وقراءة القرآن، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحال حلول الأجل كما روي عن عكرمة رحمه الله؛ لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها»(٢).

وقد أمر الله عز وجل رسوله بأن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

أي: أن يطلب الزيادة في العلم «وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم»(٣).

ومن الخير أن يدعو الداعي في دعائه لنفسه ولغيره؛ فهذا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

قال القرطبي: «استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله»(٤).

كان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك، وتبين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه(٥)، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ونوح عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين، وقيل: أراد بوالديه أباه وجده(٦).

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمنًا هو بر المؤمن بالمؤمن؛ وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه، وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمنًا؛ لأن هذه كانت علامة النجاة، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة، ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات هو بر المؤمن بالمؤمنين كافةً في كل زمان ومكان، وشعوره بآصرة القربى

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٤٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٥٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٨٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٤٦.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥١.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٣١٤.

على مدار الزمن، واختلاف السكن، وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها على تباعد الزمان والمكان»[1].

ولا يجوز الدعاء بالمغفرة والرحمة لغير المسلم، فقد نهى الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار للمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣].

وكان سبب نزول هذه الآية وعد النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب بالاستغفار، لما في حديث سعيد بن المسيب، عن أبيه رضي الله عنه أنه أخبره، **أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب: (يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله)، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية**[2].

ويعود النهي عن الاستغفار للمشركين لوعيد الله عز وجل إياهم بعدم المغفرة؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٨].

وكأن الاستغفار لهم طلب بأن يخلف الله وعيده[3].

ويلحق بالنهي عن الاستغفار للمشركين النهي عن الاستغفار للمنافقين؛ لقوله عز وجل: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[المنافقون: ٦].

وإبراهيم عليه السلام فيه أسوة حسنة لهذه الأمة إلا في شأن الاستغفار لأبيه المشرك، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۖ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ٢/ ٩٥، رقم ١٣٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، ١/ ٥٤، رقم ٢٤.

(٣) انظر: دعاء محمد صلى الله عليه وسلم، محمد أحمد وموسى الخطيب ص٧٢.

﴿أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

أي: لكم في إبراهيم عليه السلام وقومه أسوة حسنة، تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه[١].

ثانيًا: الدعاء المذموم:

إن من أوضح صور الأدعية المذمومة، ما جاء عن الكافرين والضالين.

وقد سجّلت آي القرآن بعضًا من أدعية الكافرين ممن أعرضوا عن الصراط المستقيم، والتأمل في دعائهم كاشف عن اضطراب إدراكهم، ومبلغ تكذيبهم، وقد اتخذوا من سبيل الغي سبيلًا في الدنيا، وعن حرج موقفهم وبؤس مصيرهم، وقد هووا في جهنم في الآخرة.

فمن دعاء الكافرين ما كان تعبيرًا صريحًا عن استبعاد ما جاءت به الدعوة من بدهات، واستهزاء بإمكان وقوع ما أكدت حدوثه من وعد ووعيد.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

«القط: القسط من الشيء؛ لأنه قطعة منه، من قطه إذا قطعه، ويقال لصحيفة الجائزة: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس، وقد فسر بهما قوله تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نصيبنا من العذاب الذي وعدته، قيل: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله المؤمنين الجنة، فقالوا على سبيل الهزء: عجّل لنا نصيبنا منها، أو عجّل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها»[٢].

«وذلك لأن القوم كانوا في نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته، واعلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قالوا: إنه ساحر كذاب، وقالوا له على سبيل الاستهزاء: عجّل لنا قطنا أمره الله بالصبر على سفاهتهم، فقال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]»[٣].

«يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش: يا ربنا عجّل لنا كتبنا قبل يوم القيامة، قوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

أي: نصيبنا وحظنا من العذاب قبل يوم القيامة، قال: قد قال ذلك أبو جهل، وقال آخرون: بل إنما سألوا ربهم تعجيل أنصبائهم ومنازلهم من الجنة حتى يروها فيعلموا حقيقة ما يعدهم محمد صلى الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٩.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٧.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٧٣.

عليه وسلم، فيؤمنوا حينئذٍ به ويصدّقوه، وقال آخرون: سألوا أن يعجّل لهم كتبهم التي قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥].

في الدنيا لينظروا بأيمانهم يعطونها أم بشمائلهم؟ ولينظروا من أهل الجنة هم أم من أهل النار قبل يوم القيامة استهزاءً منهم بالقرآن وبوعد الله.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن القوم سألوا ربهم تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاءً بوعيد الله، وإنما قلنا: إن ذلك كذلك لأن القط هو ما وصفت من الكتب بالجوائز والحظوظ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيل ذلك لهم، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧].

فكان معلومًا بذلك أن مسألتهم ما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم لم يكن بالذي يتبع الأمر بالصبر عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاءً، وكان فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أذى، أمره الله بالصبر عليه حتى يأتيه قضاؤه فيهم، ولما لم يكن في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦].

بيان أي القطوط إرادتهم، لم يكن لما توجيه ذلك إلى أنه معنيٌّ به القطوط ببعض معاني الخير أو الشر؛ فلذلك قلنا: إن مسألتهم كانت بما ذكرت من حظوظهم من الخير والشر»[(١)].

ومن دعاء الكافرين الكاشف عن موقفهم المعرض عن الدعوة ما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وفي هذا الدعاء ما فيه من استهزاء وتعنت؛ إذ لو كان فيه تحرٍّ للحق لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له مثلًا، ولكنهم كفروا وأنكروا واستهزأوا! وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين[(٢)].

قال أبو جعفر: «يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد أيضًا ما حل بمن قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

إذ مكرت بهم، فأتيتهم بعذاب أليم وكان ذلك العذاب قتلهم بالسيف يوم بدر، وهذه الآية ذكر أنها نزلت في النضر بن الحارث، كان يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٣-١٦٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦١٢.

هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أوائتنا بعذاب أليم!»[1].

«يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وهم يعلمون ما حل بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها، وكذّبت رسلها من عقوبات الله، وعظيم بلائه»[2].

وحين يأتي الموت يدرك الكافرون فساد ما كانوا عليه من اعتقاد وسلوك، قال تعالى: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وحين يتحقق العذاب في الآخرة وقد كانوا يستبعدونه، وحين يدركون مصيرهم الوبيل في الآخرة يتمنون لو يعودون إلى الدنيا عساهم يعملون صالحًا، ولكن هيهات!

يكشف ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

أي: «أبصرنا ما كنا نكذب به، وسمعنا منك ومن ملائكته ومن أصوات النيران وغير ذلك ما كنا نستبعده فصرنا في غاية العلم بتمام قدرتك، وصدق وعودك»[3].

فما أبصروه وما سمعوه جعلهم يطلبون الرجوع للدنيا رغبةً في العمل الصالح، ولكن لا أمل في رجوعهم، بل يلقون في النار، حينها يتعالى صراخهم ألمًا مما هم فيه، فيدعون ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧].

و﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقولهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

وما كان دعاؤهم إلا خلاصًا من عذابهم، ونلمح في دعائهم بأسلوب الاستفهام (هل) المراد به: التمني والاستعطاف رغبة قوية منهم في إبراز غير الممكن في صورة الممكن، وجعلوا هذا الاعتراف ضربًا من التوبة توهمًا منهم أن التوبة تنفع يومئذٍ؛ فلذلك فرّعوا عليه ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾... قال في الكشاف: «وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط»[4]، يريد أنّ في اقتناعهم بخروج مّا دلالة على أنهم يستبعدون حصول الخروج[5].

ويدعو الكافرون بمضاعفة العذاب للمضلين: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ

(١) انظر: جامع البيان ١٣/ ٥٠٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٥٠.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٥٥.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٥١.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٩٩.

﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

وقولهم في موضع آخر: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١].

وقولهم كذلك: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وحين نتأمل الآية في سورة (ص) نجد الفعل (زده) قد وقع موقعه في إظهار شدة الحقد على هؤلاء المضلين؛ وذلك بطلب زيادة العذاب المضاعف لهم، والتعبير بالجار والمجرور ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ قوّى المعنى، حيث جعل العذاب يحيط بهم في النار من كل جانب، كإحاطة الظرف بالمظروفين، وهذه الآية تختلف عما في الأعراف؛ لأن السياق فيها للطاغين، أما في الأعراف فهو لمطلق الكافرين[١]، ذلك أن الطغاة أشد بطشًا من الكفار.

ثانيًا: دعاء المرء على نفسه بالشر:

أخبر سبحانه وتعالى لو أنه يعجّل للناس إجابة دعائهم في الشر كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة لهلكوا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

عن مجاهد، رحمه الله قال: «قول الرجل لولده إذا غضب عليه أو ماله: اللهم لا تبارك فيه والعنه»[٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «بيّنت هذه الآية أن الرفق جعله الله مستمرًا على عباده غير منقطع عنهم؛ لأنه أقام عليه نظام العالم إذ أراد ثبات بنائه، وأنه لم يقدر توازي الشر في هذا العالم بالخير لطفًا منه ورفقًا، فالله لطيف بعباده، وفي ذلك منة عظيمة عليهم، وأن الذين يستحقون الشر لو عجّل لهم ما استحقوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم»[٣].

وفي النهي عن الدعاء على النفس روى مسلم بسنده عن جابر بن عبد اللّه، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من اللّه تبارك وتعالى ساعة يسأل فيها عطاءٌ، فيستجيب لكم**)[٤].

ويستفاد من الآية: لطف الله سبحانه وتعالى وإحسانه بعباده.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٣٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ١٣١.

(٣) التحرير والتنوير ١١/ ١٠٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابرٍ الطّويل وقصّة أبي اليسر، ٤/ ٢٣٠٤، رقم ٣٠٠٩.

آثار الدعاء

للدعاء في القرآن آثار، ومن أهمها:

أولًا: إعطاء الداعي ما طلب:

الدعاء باب مفتوح للعبد إلى ربّه سبحانه، يلتمس من خلاله كل ما يحتاجه في دنياه من صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، والخلاص من البلاء، والنصر على الأعداء، وهذا الذي كان يقوم به الأنبياء عليهم السلام، والله تعالى يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم، من المطاعم والمشارب، كما يسألونه الهداية والمغفرة، والعفو والعافية في الدنيا والآخرة[1].

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: «والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات»[2].

والدعاء أكرم شيء على الله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)**[3].

قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

والدعاء عبادة له آثاره البالغة، وفوائده العظيمة؛ لذلك أمرنا الحقّ جلّ في علاه بالدّعاء، ورغّبنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فكم من محنة رفعها الله عز وجل بالدعاء، وكم من مصيبة أو كارثة كشفها الله عز وجل بالدعاء، وقد أورد القرآن الكريم جملةً من الأدعية التي استجابها الله تعالى بمنّه وفضله وكرمه.

يهدي النظر في آيات الدعاء في القرآن الكريم إلى كرم الله ورحمته بعباده ورأفته بهم؛ إذ يهبهم ما يطلبون.

وسنعرض بعضًا من الأمثلة الدالة على إعطاء الداعي ما طلب:

❁ **إبراهيم عليه السلام.**

طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يبعث في أمته «ذريته» المسلمة رسولًا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقد طلب أن يكون الرسول منهم «لأنه يكون أشفق على قومه، ويكونون هم أعز به، وأشرف وأقرب للإجابة؛ لأنهم يعرفون منشأه وصنفه وأمانته»[4]، فيعلّمهم هذا

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٨ - ٤٠.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ص٤٥٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٦٠، رقم ٨٧٤٨، والبخاري في الأدب المفرد، ص ٢٤٩، رقم ٧١٢.
وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص ٢٦٥، رقم ٥٥٢.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦٢٥.

الرسول القرآن وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة، ويطهّرهم عن دنس الشرك، وفنون المعاصي[1].

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد جاء طلب الولد والذرية على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠].

فأجاب الله له دعوته، وبشّره بغلام حليم، وهو إسماعيل. قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

ثم أنعم الله على إبراهيم، فوهب له ابنه إسحاق حين دعاه، ووهب له من إسحاق يعقوب زيادة على ذلك، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

❁ **نوح عليه السلام.**

دعا نوح ربه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وأخبر الله عن دعائه فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

واستجاب الله دعاء نوح عليه السلام فقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

❁ **زكريا عليه السلام.**

وزكريا عليه السلام الذي تاقت نفسه إلى الولد ليرثه ويرث من آل يعقوب، فدعا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

و﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

فاستجاب له دعاءه ووهب له على الكبر ابنه يحيى، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

❁ **سليمان عليه السلام.**

طلب سليمان عليه السلام من ربه أن يعطيه الملك في قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

ولم يكن سؤاله عليه السلام «طلبًا لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح فأهلك من عليها، وأعطى سليمان المملكة»[2].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٠٤.

أما قوله: ﴿لَا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ «أي: أن يسأله فكأنه سأل منع السؤال بعده؛ حتى لا يتعلق به أمل أحد، ولم يسأل منع الإجابة»[1].

وقد استجاب الله دعاءه، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص: ٣٦ - ٣٨].

فسخّر الله الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد وأوثقه[2].

ثانيًا: الأجر والثواب:

من عظم رحمة الله بخلقه وكرمه السابغ معهم أن جعل للدعاء خيرًا ونفعًا وثوابًا وأجرًا مما يظهر في الدنيا، ويمتد في الآخرة، ويرتبط الدعاء بالمحسنين ارتباطًا وثيقًا؛ قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والدعاء صلة بين المسلم والمسلم حتى بعد الممات، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ولقد ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم الأمور التي لا تنقطع عن الميت بعد موته، ومنها الدعاء، فقال: (**أو ولد صالح يدعو له**)[3].

والدّعاء سبب أكيد لغفران المعاصي والذنوب، ولرفع الدّرجات، ولجلب الخير ودفع الشّرّ، ومن ترك الدّعاء فقد سدّ على نفسه أبوابًا كثيرةً من الخير، هذا وقد ذكر شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله عشرة أسباب لغفران الذنوب، حيث قال رحمه الله: «والسبب الرابع الدافع للعقاب دعاء المؤمنين للمؤمن، مثل صلاتهم على جنازته»[4].

إن الدعاء من العبادات الجليلة التي أمر الله بها عباده المؤمنين، ووعدهم عليه جزيل الثواب، وتوعّد من أعرض عنه بالإثم العظيم، وهو سمة للعبودية، ويستدعي به العبد من الله العناية، ويستمد منه المعونة، ويستجلب الرحمة، ويستدفع النقمة، ويظهر به الافتقار والذلة البشرية، متبرئًا من الحول والقوة، وإذا تأملت كتاب الله سبحانه وتعالى وجدت فاتحته تضمنت الدعاء، وخاتمته تضمنت الدعاء، ففاتحة الكتاب بدئت بدعاء الثناء: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ

(١) المصدر السابق.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧١٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ٣/ ١٢٥٥، رقم ١٦٣١.
(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٢/ ٤٠٣.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وتلاه دعاء المسألة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. وختم الكتاب بسورتي المعوذتين: دعاء مسألة متضمنًا دعاء ثناء(١).

ثالثًا: رفع العذاب والبلاء:

الدعاء أحد أسباب رفع البلاء ودفع الشقاء، كما في قوله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم: ٤٨].

وقال عن زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[مريم: ٤].

أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردّني قط فيما سألتك(٢).

وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقًا، أن يتمم إحسانه لاحقًا(٣).

ومن أمثلة أدعية رفع الضر قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

فجمع أيوب عليه السلام في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين.

والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره. ومتى وجد المبتلي هذا كشفت عنه بلواه. وقد جرّب أنه من قالها سبع مرات ولاسيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره(٤).

وإذا ركب المشركون السفن وعلتهم الأمواج من حولهم كالسحب والجبال، أصابهم الخوف والذعر من الغرق ففزعوا إلى الله، وأخلصوا دعاءهم له، فلما نجاهم إلى البر، فمنهم متوسط لم يقم بشكر الله على وجه الكمال، ومنهم كافر بنعمة الله جاحد لها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، التسبيح، الحمد، الذكر، السؤال

(١) انظر: تصحيح الدعاء، بكر أبو زيد ص١٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٩.
(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص ٣٨١.